سبأ

بين التاريخ و النص القرآني

الأستاذ رابح لطفي جمعة

تقديم:

لم يرد ذكر بعض الأمم البائدة والأحداث التاريخية القديمة في القرآن الكريم على سبيل الخبر التاريخي، وإنما للحض على السير في الأرض ومشاهدة ودراسة آثار الأولين للاعتبار بها والتنبيه على أخذ الموعظة منها والربط بين المعلومة الأثرية والعبرة المستفادة منها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١)﴾، *وقال سبحانه وتعالى أيضا :*
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (٢).

ومعنى ذلك كما يقول المفسرون ألم يسر هؤلاء المشركون في أطراف الأرض ليعرفوا عاقبة المشركين وآثار الأمم السالفة التي كانت قبلهم ماذا حل بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم، فقد كانوا أكثر عددًا من أهل مكة وأشد منهم قوة ولا تزال آثارهم باقية من بعدهم شاهدة على قوتهم، فلم ينفعهم ما كانوا يكسبون من الأموال وما يشيدون من الأبنية والقصور شيئاً، ولم يدفع عنهم العذاب.

كذلك من مقاصد السير في الأرض والتعرف على ماضي الأقوام وموقفهم من الأنبياء الذين أرسلوا إليهم - مواساة النبي ﷺ وتثبيته وتطمينه وتبشيره بأن النصر - بإذن الله - سوف يكون حليفه، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾(٤).

وبالجملة فإن الآيات القرآنية سالفة الذكر وغيرها واضحة الدلالة في وجوب العبرة من أدلة الآثار المادية التي بقيت بعد الأمم السابقة(٥)، لأن القرآن الكريم أفضل المراجع التي لابد أن تأخذ مكانها عند دراسة تاريخ الأمم السابقة وآثارها لا سيما عندما تقترن بدليل مادي للتحقيق في أحوال هذه الأمم وعقائدها بهدف توحيد العبادة لله وحده(٦).

على أن هناك جانباً آخر لذكر القرآن الكريم تاريخَ بعضِ الأمم البائدة وما كان سائداً فيها من عقائدَ وأديانٍ ومعتقداتٍ وتقاليدَ وحضاراتٍ، ذَلكَ أنَّ هذه الحضاراتِ وتلكَ المعتقداتِ والتقاليدَ هي التي كَونَتْ نفسيةَ العربِ قَبْلَ أنْ ينْتشِرَ الإسلام بَيْنَهُمْ، وقد قِيلَ بِحَقٍّ إنَّ أيَّ مؤرِّخٍ مُنصِفٍ لن يستطيع أن يُوفي هذا الدين الإسلاميَّ وهذا النبيَّ العربيَّ الكريمَ وهذا الشعبَ العربيَّ العظيمَ الذي كوّنَ إمبراطوريةً عظيمةً في زَمَنٍ قَصِيرٍ - لا يستطيع المؤرِّخُ أن يُوفي هذا كلّه حقَّه إذا لَمْ يُلم بما كَانَ في بِلادِ العَرَبِ من شُعُوبٍ وديانَاتٍ وحضاراتٍ وتقاليدَ قبل ظهور الإسلام، ولهذا فإنَّ دراسَةَ تاريخ وآثارِ بلادِ العربِ قَبْلَ الإسلام لَيْسَتْ دِرَاسةً عادية لِبلدٍ من البُلْدَانِ أو ترفاً فكْرِيًّا بل إنها دراسة على جانب كبير من الأهمية لا للعرب فقط بل لجميع المسلمين في أنحاء العالم(٧).

وفضلاً على ذلك فإن دراسة الآثار وما خلفه السابقون منها يزيد من معلوماتنا عن مواطن الحضارة التي كانت للعرب في شبه الجزيرة العربية، تلك المواطن التي مازلنا نجهل عنها الكثير، ويؤكد الأستاذ عبد الله حمد الحقيل أننا في حاجة إلى قراءة المزيد من الكتب والوثائق والمخطوطات والمصادر التاريخية التي تتصل بتاريخ بلادنا العربية(٨).

ليس هذا فحسب، بل إن من دَلائِلِ الإعجاز التّاريخي للقرآن الكريمِ أنَّهُ

يُشِيرُ - وَلَوْ بِعِبَارَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجُمَلٍ مُقْتَضَبَةٍ - إلى ما كانَتْ عليه بعض الأمم البائدة من حضارة وتقدم ورقي في فنون الزراعة والبناء مما كشفت عنه حديثاً أعمال البحث والتنقيب وأكدته الحفريات الأثرية في القرن العشرين، أي بعد مضي أكثر من أربعة عَشَرَ قرناً على نزول القرآن، وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من سورة أن النبي ﷺ لم يكن ليعلم شيئاً من حوادث وأنباء هذه الأمم الغابرة وتلك الأقوام البائدة قبل نزول الوحي عليه، وأنه لم يكن حاضراً أو شاهداً ما يسرده القرآن من هذه الأنباء وتلك الأحداث، يقول سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾(٩). ويذكر الدكتور عبد المنعم عبد الحليم أن علم دراسة النقوش والكتابات القديمة في الجزيرة العربية يقدم لنا مثالاً واضحاً للإعجاز في القرآن الكريم(١٠).

مملكة سبأ :

ومن الأقوام القديمة والممالك البائدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم مملكة سبأ في اليمن، وقد جاء ذكر هذه المملكة في القرآن مرتين الأولى في سورة «النمل» والثانية في سورة «سبأ».

وفي هذه الصفحات نتحدث عن سبأ بين التاريخ والنص القرآني، فنبادر إلى القول بأن ما ورد في القرآن الكريم عن سبأ - وخاصة سد مأرب وَسيْل العرم - يكاد ينطبق تماماً على ما كشفت عنه أعمالُ البحث والتنقيب في المناطق الأثرية بمدينة صرواح ومأرب، وما سجله الرحالة الأجانب والعرب الذين ارتادوا هذه المناطق في كتاباتهم وبحوثهم وما نقلوه من نقوش.

فقد كانت قصة التوراة عن مملكة سبأ والنبي سليمان وما ورد فيها من أماكن متعددة في بلاد العرب وما حوته هذه المملكة من ذهب وكنوز وأحجار كريمة، وما كتبه المؤرخون اليونان والرومان من قصص أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة التاريخية، وما رواه بعض مؤرخي العرب كالحسن أحمد الهمداني في كتابه «الإكليل» عما كان في بلاد اليمن من قصور وحصون وهياكل ومعابد وسدود ومقابر بقيت قائمة من عهد الأقدمين، كل هذه الكتابات كانت سبباً في إثارة خيال كثير من الرَّحَّالةِ الإفرنج والعرب وحملهم على السفر إلى اليمن⁽¹¹⁾.

وقد بدأت معلوماتنا عن «اليمن الخضراء» كما وصفها الهمداني في كتابه «صِفَة جزيرة العرب» أو «بلاد العرب السعيدة» "Arabia - Felix" كما سماها اليونان الأقدمون تتغير منذ بدأت النقوش اليمنية تصل إلى أيدي العلماء كما وصل إلى أيديهم عشرات الألوف من المخربشات القصيرة على واجهات الصخور بين ثمودية ولحيانية وسبئية وغيرها جعلتنا نعرف الشيء الكثير عن تاريخ اليمن القديم.

وقد ساعدتنا هذه النقوش في الحصول على صورة واضحة إلى حد ما عما كان جارياً في تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد سواء من الناحية السياسية أم الدينية أم الاقتصادية أم العمرانية، فقد كان هناك في تلك الحقبة عدة دويلات تعاصر بعضها بعضاً في جنوب الجزيرة العربية، وكان من أهمها «سبأ» و «معين» و«قتبان» و«حضرموت» و«أوسان»، وكان يحكم كلاً من هذه الدويلات أو الممالك رئيس أو حاكم اسمه مكرب⁽¹²⁾ يجمع في يده بين السلطتين الدينية والزمنية، على أن مملكة «سبأ» كانت هي دولة اليمن الكبرى وأشهرها ذكراً في تاريخ اليمن القديم.

وقد بلغ العدد المعروف حتى الآن من هؤلاء المكربين من حكام سبأ اثني عشر مكرباً كان آخرهم يدعى «كريب إيل وتار» وكان معاصراً للملكين الآشوريين سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق . م) وسنحريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق . م)(١٣).

وقد اتسعت مملكة سبأ حتى شملت «أوسان» و«قتبان» و«حضرموت» ، واستمرت خلال تاريخها تقوى حيناً وتضعف حيناً آخر، وتتسع تارة وتنكمش تارة أخرى حتى انتهى الأمر باحتلال مملكة أكسوم في الحبشة لليمن سنة ٥٢٥ ميلادية(١٤) .

حضارة سبأ :

وقد نشأت حضارة عريقة في مملكة سبأ التي اتخذ حكامها مدينة «صرواح» عاصمة لهم ثم استولوا على مدينة «مأرب» واتخذوها عاصمة لملكهم ، وقد عني كثير من المكربين من ملوك سبأ بتشييد المعابد للآلهة التي كانوا يعبدونها ، ولعل أقدم هذه المعابد السبئية الكبيرة التي ظلت قائمة حتى اليوم هو ذلك المعبد الذي بناه[يدع إيل ذريح] بن (سمهو على) وهو ثاني مكرب معروف في مملكة سبأ وعاش في القرن الثامن قبل الميلاد(١٥) .

وقد تميزت حضارة السبئيين القديمة على ما عداها من الحضارات بتوفير أسباب الرخاء والاستقرار ووسائل استثمار الأرض واستزراعها واستخراج خيراتها بإقامة السدود عند مآزم الأودية وملتقى السيول حيث تحتجز المياه وتخزن لوقت الحاجة لتضمن للحقول الواسعة رياً منتظماً على مدار السنة ولا سيما في السنين المجدبة .

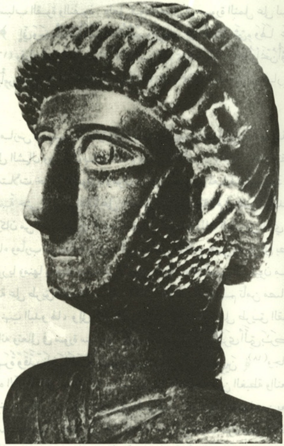

تمثال من البرونز لحاكم سبأ «معدي كرب» ويعد واحداً من أهم التماثيل المجسدة للحضارة اليمنية القديمة

وقد تفوق السبئيون على البدو في الحضارة وازدهرت حياتهم وجمعوا في أيديهم كثيراً من أسباب القوة والنفوذ. ولعل قوله تعالى في سورة النمل على لسان الهدهد: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾(١٦) وقوله تعالى على لسان الملأ من قوم مملكة سبأ: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾ أن يكون إشارة إلى ما بلغته مملكة سبأ من ازدهار وقوة ونفوذ(١٧).

كذلك مارس السبئيون التجارة وأخذت قوافلهم تجوب الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال ووصلت بلاد الشام وكثرت الأموال وعم الرخاء وتقدم العمران وامتلأت خزائنُ الملوك بالأموال فَبَنَوا القُصورَ والمعابدَ والسُّدودَ التي لاتزال قائمةً حتى الآن شاهدةً على حضارة عريقة وتقدم في فنون الهندسة والعمارة، وكان من أهم الطرق الرئيسية لقوافل التجارة ذلك الطريق الذي كان يمر بصنعاء ومأرب ثم بمكة ويثرب ثم بمداين صالح حتى يصل إلى بصرى جنوب سوريا ومنها يأخذ سمته شمالاً حتى غزة. وقد أسس السبئيون مراكز تجارية مهمة على طريق القوافل سالف الذكر، فكانت قوافلهم تأمن مصاعب كثيرة أهمها نهب البدو لها، وإلى هذه القرى التي كانت تقع على طريق القوافل يشير سبحانه وتعالى فى سورة سبأ بقوله ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾(١٨) وجاء في تفسير هذه الآية أن الله تعالى يذكر السبئيين بما كانوا فيه من الغبطة والنعمة والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض بحيث إنَّ مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء بل حيث نزل يقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاج إليه في سيره، وقال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وغيرهم يعني قرى الشام، كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام

بقوافلهم التجارية في قرى ظاهرة متواصلة واضحة يعرفها المسافرون(١٩).

وبالجملة فقد ارتبط تاريخ سبأ في أيامها العظيمة بسيطرة ملوكها على الطريق التجاري الكبير إلى أن ظهرت مملكـة «ظفار» جنوبي اليمن فغيرت مـن سير هذا الطريق التجاري وجعلته قريباً من البحر، وأخذت أهمية مأرب عاصمة المملكة السبئية تتضاءل بينما أخذ نجم ظفار ومدن أخرى يعلو في أرض اليمن.

تاريخ اعتلاء بلقيس عرش سبأ :

يحدد بعض المؤرخين المتخصصين في تاريخ اليمن القديم مملكة سبأ الحقيقية أو العصر السبئي من نحو سنة ٩٥٠ قبل الميلاد إلى سنة ١١٥ قبل الميلاد، وقد بلغت هذه المملكة ذروة مجدها حوالي القرن التاسع قبل الميلاد.

وفيما يلي نحاول أن نتعرف على التـاريخ التقريبي الذي اعتلت فيه «بلقيس» عرش مملكة سبأ وعاصرت فيه النبي سليمان بن داود ملك بني إسرائيل. واعتمادنا في ذلك على تاريخ حكام مصر وفينيقيا في ذلك الـوقت، حيث إنَّ تاريخ هؤلاء الحكام قد أمكـن تحديده على وجه التقريب بـالرجوع إلى قوائم الملـوك والفراعنة التي سجلها المؤرخ المصري مانيتون وكذلك بالرجوع إلى سفر الملوك من التوراة.

فنقول إنه بعد وفاة النبي موسى عليه السلام خلفه في قيادة الشعب الإسرائيلي يوشع بن نون الذي تمكن بحروبه مع ملوك البلاد المجاورة وشعوبها من السيطرة على الأرض الـداخلـة في فلسطين وتقسيمهـا بين بنـي إسرائيـل إلى اثنتـي عشرة مقـاطعة بعـدد الأسبـاط، وعيّن على كل مقـاطعـة منها شيخـاً كـاهنـاً يسمـى

«القاضي» وبذلك عرف هذا العصر في تاريخ بني إسرائيل بعصر القضاة الذي تحدث عنه التوراة في السفر المعروف بهذا الاسم، وقد بدأ عصر القضاة من وفاة يوشع بن نون حوالي سنة ١١٣٠ قبل الميلاد حتى سنة ١٠٣٠ ق.م(٢٠).

وفي أخريات هذا العصر فسدت ذمم القضاة ومالوا إلى أخذ الرشاوى فاختار صموئيل للشعب الإسرائيلي ملكاً لهم هو شاؤل (طالوت في القرآن الكريم) وهو أول ملوك بني إسرائيل، وقد تمكن شاؤل من قيادة الشعب وخوض الحروب ومنازلة جوليات (جالوت) قائد الفلسطينيين.

وفي هذه الفترة ظهر النبي داود بوصفه أحد جنود شاؤل الشجعان ونازل جوليات وتمكن من هزيمته وقتله وعلى إثر ذلك فرّ سكان فلسطين من بلادهم وأعجب شاؤل بداود وارتفعت مكانة الفتى بين قومه حتى خلف شاؤل في حكم البلاد [١٠١٢ ـ ٩٧٢ق.م]، وقد صاغ القرآن الكريم هذا الحادث من حوادث تاريخ بني إسرائيل فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾(٢١).

كان الملك داود محاربًا شديد البأس، فأخذ يوسّع من رقعة مملكته حتى وصل بها إلى حدود عمون (عمان حاليا) ونهر الفرات، وتزوج من امرأة أوربا فأودلها ابنه سليمان الذي خلف أباه على بني إسرائيل(٢٢).

وفي سنة ٩٥٠ قبل الميلاد بقليل كان الحكم الفرعوني في مصر قد انتقل إلى يد أسرة من جنس أجنبي عرف حكامها بلقب رؤساء المشوش أو رؤساء الأجانب، وقد كون هؤلاء الحكام الأجانب الأسرة الثانية والعشرين التي دامت من سنة ٩٤٥ ق.م إلى سنة ٧٣٠ ق.م.، وقد استطاع علماء المصريات أن يحدّدوا

خمسة من هؤلاء الحكام يحملون اسم «شوشنق».

على أنه يهمنا من هؤلاء الحكام الأجانب الملك شوشنق الأول مؤسس الأسرة، وهو الملك المصري الذي عاصر النبي سليمان ومن بعده ابنه رحبُعام.

وطبقاً لما أورده المؤرخ مانيتون في قوائم الملوك فإن شوشنق الأول حكم مصر ٢١ سنة من سنة ٩٤٥ ق. م إلى سنة ٩٢٤ ق. م(٢٣).

وفي ذلك الوقت كانت العلاقات بين مصر والبيت المالك الإسرائيلي قد أصبحت أكثر تقرباً، يدلنا على ذلك النص التالي لصاحب الحوليات العبراني حيث يقول: «وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داوود»(٢٤)، كما يقول: «وصعد فرعون مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان»(٢٥).

وواضح من ذلك أن صاحب الحوليات العبراني وإن لم يصرح باسم فرعون مصر الذي صاهر الملك سليمان، إلا أنه مما لا شك فيه أنه هو شوشنق الأول الذي تسميه التوراة «شيشق»، يدل على ذلك ما جاء في سفر الملوك «وفي السنة الخامسة للملك رحبُعام (ابن النبي سليمان) صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب (يعني الهيكل الذي بناه سليمان) وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء»(٢٦). ويوافق هذا الغزو على الأرجح حوالي سنة ٩٣١ قبل الميلاد أي خلال حكم شوشنق الأول، وبعد وفاة النبي سليمان سنة ٩٣٦ ق. م بحوالي خمس سنوات كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين(٢٧).

هذا بالنسبة إلى شوشنق الأول فرعون مصر الذي عاصر النبي سليمان.

أما بالنسبة إلى ملك الكنعانيين الذي عاصر سليمان، فقد كان الكنعانيون الذين سماهم اليونانيون بعد ذلك بالفينيقيين يسكنون في تلك الحقبة مدن

الشاطىء السوري على الساحل الشرقي للبحر الأبيض وخاصة مدينة صور ومدينة جبيل (بيبيلوس) وقد خلف الملك أحيرام أباه «أبي - بعل» على مملكة صور وحكم فترة طويلة بين سنتي ٩٨٠ إلى ٩٣٦ قبل الميلاد.

والملك أحيرام هذا كان معاصراً للملك سليمان بن داود ومن أهم ما يذكر به أنه اهتم بتجميل مدينة صور وتوسيع رقعتها فشيد فيها عدداً من القصور والمعابد الجديدة كما اهتم بترميم بعض المعابد القديمة وكان عهده في الجملة عهد نهضة كبيرة في شتى النواحي.

على أن من أشهر الأعمال التي اقترنت باسم هذا الملك هو صداقته المتينة للملك سليمان وقبوله بأن يمدّه بالمعماريين والعمال الفنيين المهرة ومواد البناء اللازمة لإقامة الهيكل في أورشليم وكذلك إقامة قصر له وقد استغرق بناء الهيكل والقصر عشرين عامًا.

وقد ظل أحيرام والملك سليمان صديقين حميمين وشريكين في التجارة، فساعد سليمان أيضًا على إنشاء أسطول تجاري كبير في البحر الأحمر وأمدّه ببحارة فينيقيين مهرة للعمل مع بحارته على السفن، واتسعت صلات أحيرام البحرية وازدادت في البحر الأبيض المتوسط وخاصة جزيرة قبرص (٢٨).

مما تقدم نستطيع أن نحدد الزمن الذي عاصرت فيه ملكة سبأ النبي سليمان بحوالي النصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً أي حوالي سنة ٩٥٠ أو سنة ٩٥٤ قبل الميلاد، وهي الفترة التي يقول عنها المؤرخون إن مملكة سبأ بلغت فيها ذروة مجدها.

فحوالي هذه الفترة تقريباً عاشت بلقيس ملكة سبأ، وقد بلغت المملكة في عهدها درجة كبيرة من الرقي والازدهار والثروة والغنى وانتشار الزراعة وازدهار التجارة وتقدم فنون العمارة والأخذ بنظام الشورى في الحكم، يدل على ذلك ما

جاء في سورة النمل على لسان ملكة سبأ: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾(٢٩).

ومما لا شك فيه أن ازدهار مملكة سبأ في عهد الملكة بلقيس كان له أكبر الأثر في لفت نظر الملك سليمان إلى هذه المملكة القوية الغنية مما سيأتي بيانه فيما بعد.

ديانة السبئين :

أما ديانة السبئيين في تلك الأزمنة السحيقة فقد كانت تقوم في أساسها على عبادة الأجرام السماوية، فكانت تقوم على أساس ثالوث مقدس من الكواكب، فكان الإله الأب هو «القمر» أو «الموقاه» وكانت الإلـهة الأم هي «الشمس» أو (ذات حميم في الصيف وذات بعدان في الشتاء)، أما الابن فقد كان نجم الزهرة أو «عشتر».

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أول من دان من العرب بعبادة الأجرام السماوية هم السبئيون، فلما تفرقوا في بلاد العرب بعد تهدم سد مأرب انتشرت عبادة الشمس والكواكب في القبائل التي نزلوا بها أو جاوروها ثم انتقلت إلى مجاوريهم من أهل الحبشة والشام(٣٠).

ولعل السبئيين أخذوا عبادة الشمس عن المصريين القدماء، فالمعروف أن المصريين القدماء عبدوا الشمس وأقاموا لها الهياكل والمعابد ونظموا لها الأناشيد الدينية كما في «أنشودة أخناتون» ومنظومة «مائة نشيد لآمون»(٣١).

كانت معابد هذه الآلهة السبئية على درجة عظيمة من الفخامة وخاصة في مدينة صرواح ومأرب مما يدل على أنه كان يعيش في مملكة سبأ قوم ذوو حضارة راقية وثروات طائلة وتقدم في فنون العمارة والهندسة .

وقد أكدت أعمال التنقيب في اليمن ما جاء في القرآن الكريم عن عبادة السبئيين للشمس فقال سبحانه وتعالى في سورة النمل على لسان الهدهد :
﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٣٢) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن اليمنيين في الوقت الحاضر يطلقون اسم بلقيس على معبد يبعد عن خرائب مدينة مأرب بحوالي أربعة كيلومترات جنوب شرقي المدينة وهو المعبد المشهور باسم «محرم بلقيس» وقد زاره الرحالة الفرنسي جوزيف توما ارنو سنة ١٨٤٣م ، كما زاره الرحالة الألماني أدوارد جلاسر سنة ١٨٨٨م ، ونقلا ما على السطح الخارجي لسور هذا المعبد من كتابات ونقوش ، وقد ظل هذا المعبد يؤدي وظيفته في عبادة الشمس وإلاه القمر «الموقاه» بمدينة مأرب حقبة تقرب من ألف سنة(٣٣) .

بلقيس ملكة سبأ :

أما الملكة بلقيس فإنها تثير جدلاً كبيراً بين المؤرخين ، فليس هناك حتى الآن دليل تاريخي أو أثري على وجود تلك الملكة ، ومن هنا نسجت حول شخصيتها الأسطورية العديد من المرويات والأقاصيص اليهودية والمسيحية والإسلامية واليمنية والحبشية . وقد توصل الدارسون إلى أن القصص المكتملة عن زيارة

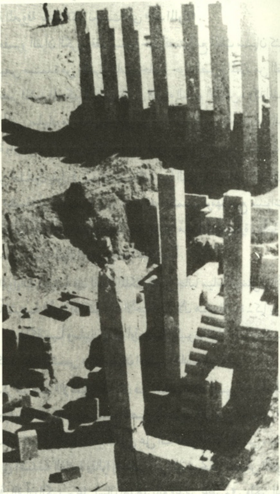

جزء من معبد في مأرب يطلق عليه « محرم بلقيس »

الملكة لسليمان ظهرت في الحبشة ووجدت صيغة جميلة لها في الملحمة الوطنية الحبشية المعروفة باسم «كبرا نجشت» أي «مجد الملوك».

أما مفسرو القرآن الكريم فقد نسجوا حول قصتها مع الملك سليمان كثيراً من الأقاصيص مستمدة من الإسرائيليات وخاصة حول الصرح الممرّد من القوارير وهو القصر المشيد المحكم البناء المرتفع في السماء الناعم الأملس، وكذلك حول هديتها للنبي سليمان من الغلمان والجواري وما حلوا به من الأساور من الذهب والفضة والياقوت والأحجار الكريمة وما حملوه من أنواع البخور والطيوب(٣٤).

فابن خلدون يقول في تاريخه إن ملكة سبأ التي زارت النبي سليمان كان اسمها «بلقمة» أو «بلقيس» وأنها كانت قد حكمت قومها سبع سنوات قبل زيارتها سليمان وأربعة وعشرين سنة بعد عودتها من تلك الزيارة، وأنها كانت السادسة في ترتيب الملوك الذين حكموا مملكة سبأ.

أما الروايات الحبشية فإن لقصة الملكة بلقيس جانباً سياسيًّا يتمثل في اتخاذها أساساً لشرعية الأسرة المالكة عند الأحباش، لأن هذه الأسرة - كما يروون - تنحدر من مملكة سبأ وسليمان إذ إن أول ملوك أثيوبيا كان ابناً لبلقيس أو «ماكدة» بطلة الشمس، أما سليمان الحكيم فكان بطل القمر.

ويذكر صاحب «الإكليل» أنه كان في مأرب ثلاثة قصور هي «سلحين» و «الهجر» و«القشيب»، وأهم هذه القصور وأشهرها كان قصر «سلحين» الذي تردد اسمه كثيراً في كتب الأدب العربي على أنه قصر الملكة بلقيس، وكثيراً ما أشاروا إلى أعمدته القائمة وقالوا إنها هي التي كانت تحمل العرش الذي جاء وصفه في القرآن الكريم على لسان الهدهد بأنه «عرش عظيم». ولكن الدكتور أحمد فخري يقول إنه من الصعب تحديد مكان قصر بلقيس اعتماداً على مجرد

أقوال الشعراء وما جاء في مبالغات كتاب العرب.

وفي سنة ١٩٨٨م، أصدرت دار نشر بلزر بمدينة شتوتجارت كتاباً عنوانه «ملكة سبأ الفن والأسطورة والآثار بين الشرق والغرب»، يتضمن أبحاثاً ودراسات قيمة عن هذه الملكة الأسطورية وآخر ما توصلت إليه الكشوف والبحوث في النقوش والآثار عن اليمن القديم وملكته والمرويات والأقاصيص المتعلقة بها(٣٥).

أما القرآن الكريم فلم يصرح باسم ملكة سبأ؛ لأن القرآن لا يعنى كثيراً بذكر الأسماء وإنما قال في الآية ٢٣ من سورة النمل على لسان الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾. كذلك لم تصرح التوراة باسم ملكة سبأ التي زارت النبي سليمان.

أما مفسرو القرآن الكريم فقد تكرر في تفاسيرهم اسم «بلقيس» على أنها ملكة سبأ بالرغم من أن هذا الاسم لم يرد على الإطلاق بين الأسماء السبئية المعروفة، ويذهب البعض إلى أن هناك احتمالاً بأن يكون الاسم منقولاً عن العبرية التي نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه «جارية» أو «أَمَة»(٣٦).

ومهما يكن من خلاف حول اسم ملكة سبأ التي زارت الملك سليمان، فإنه لم يكن غريباً في تلك الأزمنة البعيدة أن تحكم امرأة تلك المملكة، فلدينا من تاريخ الممالك والشعوب قديماً وحديثاً شواهد عديدة على أن بعض النساء حكمن شعوبهن، فقد حكمت الملكة نيتوكريس مصر وهي من ملوك الأسرة السادسة، كما حكمت الملكة «سبك نفرو» مصر وهي من الأسرة الثانية عشرة، أما الملكة حتشبسوت فقد حكمت مصر وهي من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، كما حكمت كلوبطره مصر في أواخر العهد البطلمي، وفي الجزيرة العربية نفسها

حكمت الزباء مملكة زنوبيا التي كانت عاصمتها تدمر أو بالميرا كما يسميها الرومان، بل أكثر من ذلك فهناك ملكتان من الأسرة الصليحية التي حكمت اليمن في القرنين الرابع والخامس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) إحداهما واسمها «أسماء» والثانية واسمها «أروى» وكان يقال لها «بلقيس الصغرى».

وقد اقترن اسم بلقيس بزيارتها للنبي سليمان في مملكته بأورشليم وإيمانها بعقيدته وإعجابها به حتى قيل إنها تزوجت منه وفي ذلك تقول التوراة «سمعت ملكة سبأ بخبر سليمان . . . فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جدًّا وحجارة كريمة وأتت سليمان بكل كلامها، فلما رأت كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب (الهيكل) لم يبق فيها روح وقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وحكمتك».

وقد ذكر القرآن الكريم قصة النبي سليمان مع ملكة سبأ في الآيات من ٢٠ إلى ٤٤ من سورة النمل، وقوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال المفسرون إن سليمان عليه السلام اتخذ لهذه الملكة قصراً عظيماً منيفاً ليريها عظمة سلطانه، فلما رأت ما آتاه الله تعالى، وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم وملك عظيم فأسلمت لله عز وجل وقالت رب إني ظلمت نفسي أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين أي تبعت دين سليمان في عبادته لله وحده(٣٧).

ولما توفي سليمان حوالي سنة ٩٣٥ ق . م قام النزاع بين ابنه رحبُعام Rehoboam من زوجته نعمة العمونية وبين أحد عبيد سليمان ويدعى «يربعام» وانقسمت المملكة إلى قسمين شمالي ويحكمه يربعام ويعرف بمملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة وجنوبي ويحكمه رحبعام ويعرف بمملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم ، حتى إذا كانت سنة ٧٣٠ ق . م زالت مملكة إسرائيل من الوجود زوالاً تامًّا ، في حين ظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها ملك بابل نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق . م وقتل آخر ملوكها ونهب أورشليم ودمرها وسبى أهلها ونقلهم إلى بابل ، وقد عرفت هذه الفترة في تاريخ بني إسرائيل «بالسبي البابلي» وفيها تحطم الهيكل وكل ما كان لبني إسرائيل .

سد مأرب وسيل العرم :

قلنا إن «سبأ» ذكرت في القرآن الكريم مرتين ، وقد تحدثنا آنفاً عن المرة الأولى بمناسبة قصة الملك سليمان مع بلقيس ملكة سبأ .

أما المرة الثانية التي ذكرت فيها سبأ في القرآن الكريم فهي في سورة «سبأ» حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾(٣٨) .

وسبق أن ألمحنا فيما تقدم إلى الحضارة السبئية القديمة وتقدم السبئيين في الزراعة وفنون العمارة وحسن استخدامهم مياه السيول في الري ، فكانت

أرض سبأ مضرب الأمثال بين العرب في الخصوبة وكان أهلها ينعمون بخيرات واديهم الفسيح حيث كانت كميات كبيرة من الأمطار تسقط في مناطق كثيرة في شرقي اليمن وتتدفق سيولها في الوديان المختلفة حتى تصل إلى

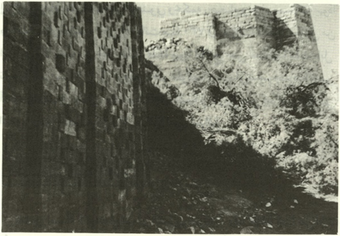

● جزء من سد مأرب مازال يحتفظ بشكله ●

منطقة قريبة من مدينة مأرب فتدخل متدفقة في فجوة بين الجبال تعرف باسم جبل بلق، وتسمى الفتحة بين الجبلين باسم «الضيقة» ولكل من جهتيها اسم، فيقال بلق الأيمن وبلق الأيسر، كما يعرف الوادي الذي تسير فيه تلك السيول بوادي ذنة.

وقد اختار السبئيون القدماء هذا المكان لتشييد السد المعروف «بسد مأرب»، فبنوا جداراً قويًّا يعترض الوادي ويحجز مياه الأمطار المتدفقة وجعلوا في الناحيتين

فتحتين إحداهما إلى أقصى اليمين واستغلوا الجبل المرتفع فلم يبنوا إلا جداراً ضخماً ليكون صدفاً ثانياً للبوابة، أما الفتحة أو البوابة الثانية التي في الناحية اليسرى فهي أكبر وأعظم وتنقسم إلى قسمين ينتهيان بحوض كبير مبني بالحجر، جعلوا فيه فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لتروي ناحية من نواحي الوادي الفسيح، وأقاموا على هذه القنوات قناطر صغيرة عديدة للتنقل عبرها من مكان إلى آخر.

والجدير بالذكر هنا أن السدود كانت منتشرة في طول اليمن وعرضها حتى إن الحسن بن أحمد الهمداني يذكر في كتابه «الإكليل» أنها ثلاثون سدًّا وقيل إنها ثمانون سدًّا. على أن أشهر هذه السدود وأهمها كان سد مأرب الذي يأتي في مقدمة تلك السدود ضخامة وإتقاناً، فقد كان أعظمها شأناً وأكثرها نفعاً وأكبرها حجماً وأبعدها صيتاً وأخلدها ذكرًا(٣٩).

وقد بدأ السبئيون في بناء هذا السد الذي يعد إحدى عجائب العالم القديم في الهندسة المعمارية في عهود الملوك الملقبين بمكرب، ويذهب البعض إلى أنه بني في المائة الخامسة قبل الميلاد في عهد مكرب سبأ «سمهو على ينوف» ابن «ذمار على» وفي عهد ابنه «يثع بين بن سمهو على»، في حين يذهب البعض الآخر إلى أنه بني في منتصف القرن السابع قبل الميلاد (حوالي سنة ٦٥٠ ق.م)(٤٠)، أما الدكتور حسن محمد الشماع فيذهب إلى أن السد قد بلغ تمامه وذروته في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد(٤١).

وقد تحولت الأرض المنبسطة أمام السد من جهة الشرق إلى جنة فيحاء وارفة الظلال كثيرة الخيرات حتى سميت جنتين كما وصفها سبحانه وتعالى في سورة سبأ / آية ١٥ : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ وقد وصف المسعودي أرض سبأ

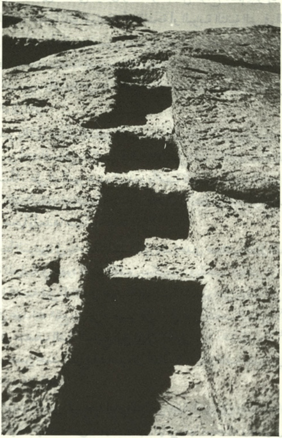

● إحدى قنوات سد مأرب ●

فقال إنها كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها وأكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مروجاً مع بنيان حسن وشجر مصفوف ومساكب للماء متكاثفة وأنهار متفرقة وكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه(٤٢).

وأول من شاهد أنقاض السد مـن المسلمين هو الهمداني المتوفى سنة ٩٤٥م، ووصفه وصفًا دقيقًا فقال: «الجنتان عن يمين السد ويساره وهما الآن غامرتان، وإنما عفتا لما اندحق السد فارتفعتا عـن أيدي السيول . . . وأما مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس ورأيت بناء أحد الصدفين باقيًا وهو الذي يخرج منـه الماء قائماً بحاله على أوثق ما كان، وقد بقي من العرم شيء مما يصالى الجنة اليسرى»(٤٣).

أما في العصر الحديث فقد زار الـرحالة جوزيف تومـا ارنو (١٨٤٣م) مدينة مأرب في طريقه إلى خرائب مدينة صرواح وزار سد مأرب ونقل كثيرًا من النقوش السبئية التي رآها وأخذ مذكرات عما شاهـده هناك وخاصة عن سد مأرب، كما قـام الدكتـور أحمد فخـري أستاذ تـاريـخ مصر والشرق القـديم بكلية الآداب بجامعـة القاهرة بـزيارة مأرب ومـا فيها مـن آثار سنة ١٩٤٨م، والتقـط صوراً فوتوغرافية لهذه الآثار ومنها صـور لسد مأرب كانت تعتبر أول صور وافية تنشر عن هذا السد(٤٤).

وتصف لنا الدكتـورة كلود فايان في كتابها «كنت طبيبـة في اليمن» سد مأرب فتقول «لا تـزال كتل الأحجار المنحـوتة ببراعـة منطبقة بإحكـام ولا يزال الملاط (الأسمنـت) الذي يغطـي منحنيات القنـوات كما هـو وكأنـه لم تمر فترة طويلـة عليه، ولا يسـع المرء إلا أن يعجب بدون تحفـظ إزاء اكتمال هذا العمـل الجدير بنسبته إلى مهندس معاصر»(٤٥).

كما يصف ويندل فيليبس في كتاب «كنوز مدينة بلقيس» طريقة بناء السد فيقول «أكثر ما أدهشنا بالفعل كانت الطريقة التي وضعت بها تلك الحجارة الهائلة بعضها فوق بعض بترتيب دقيق بحيث كان الحجر يناسب الآخر وكأنها قطع الفسيفساء وقد رأينا قسماً من جدار السد يرتفع خمسين قدماً ما زال شامخاً كما كان عندما أنشأه فنانو سبأ قبل ٢٧٠٠ عام»(٤٦).

تهدم السد :

تهدم سد مأرب مرات عديدة خلال الفترة الطويلة بين تشييده في منتصف القرن السابع قبل الميلاد (حوالي سنة ٦٥٠ ق. م) وبين آخر مرة أصلح فيها سنة ٥٤٢ للميلاد في عهد أبرهة ملك الحبشة. ففي حوالي سنة ١٤٥ قبل الميلاد ظهرت أولى بوادر الانهيار على السد ولكن سرعان ما تضافرت الجهود على ترميمه وظل قائماً حتى سنة ١١٥ قبل الميلاد فداهمته السيول وأصابه الدمار وحلّت بالبلاد كارثة عظمى وتفرق سكان اليمن في الأرض بعد انهيار السد، ويذهب البعض بحق إلى أن ذلك كان هو سيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم.

ولكن البعض الآخر يذهب إلى أن الهمدانيين من ملوك حمير أعادوا بناء السد وأدخلوا عليه بعض التحسينات مما جعله قائماً لمدة خمسة قرون أخرى. وفي منتصف القرن السادس الميلادي سنة ٥٤٢م أصلح السد للمرة الأخيرة في عهد أبرهة الحبشي كما قدمنا وبعد ذلك بسنوات قليلة تصدع السد وركبته السيول فأغرق الأراضي المحيطة به وتفرق الناس عنه ولم تقم للسد بعد ذلك قائمة وكان

بحق نكبة على المنطقة كلها لم تفق منها مأرب أو تتغلب عليها حتى اليوم ويعتقد البعض أن هذا هو التهدم الذي ورد ذكره في القرآن(٤٧).

وبدأت بعد هذه الكارثة أولى الهجرات الكبرى لليمنيين، فهاجر الأوس والخزرج إلى يثرب وسكنت غسان أرض الشام حيث أسست مملكة الغساسنة في حين هاجر قوم إلى العراق وسكنوا الحيرة وأسسوا مملكة الحيرة أو المناذرة ولحق الأزد بعمان وفر خذاعة إلى تهامة، وعن النبي ﷺ أنه قال عن سبأ «إنه كان رجلاً من العرب وله عشرة أولاد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وأنمار وحمير، وأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان». وهكذا انفرط عقد السبئيين وقيل فيهم المثل المشهور «تفرقوا أيدي سبأ «أو أيادي سبأ».

• • •

وقد نسج المؤرخون وبعض مفسري القرآن الكريم قصصاً خيالية حول سبب تهدم السد وانهياره(٤٨).

وقد سجل القرآن الكريم هذا الحدث التاريخي المهم وساقه لكفار قريش مساق العبرة والموعظة فقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٤٩).

أما لفظ العرم المذكور في الآية الكريمة فقد قال قتادة إن معناه السد وقال السهيلي هو اسم الوادي وقيل إنه اسم الفأر الذي خرق السد وقيل هو السيل الذي لا يطاق(٥٠).

وإلى سيل العرم وتهدم سد مأرب يشير الأعشى بقوله :

ففي ذاك للمؤتسي أسوة   ومأرب عفّا عليها العرم
رخام بناه له حمير   إذا جاء موّاره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها   على سعة ماؤهم إذ قسم
فعاشوا بذلك في غبطة   فجارفهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها   بيهْماء فيها سراب يطم
فصاروا أيادي ما يقدرو   ن منه على شرب طفل فطم

●●●

الهوامش :

(١) سورة الروم، آية ٩ .

(٢) سورة غافر، آية ٨٢ .

(٣) سورة هود، آية ١٢٠ .

(٤) سورة يوسف، آية ١١١ .

(٥) وردت كلمة «أثر» في القرآن الكريم مرتين وكلمة «آثار» إحدى عشرة مرة وكلمة «أثارة» مرة واحدة، والمادة تدور في هذه الاستعمالات حول معاني بقايا الشيء التي تدل عليه أو ما خلف السابقون من مظاهر عمرانية أصابها البلى، كما تعني أيضا الدلائل والآيات والتواريخ والأخبار.

(٦) عبد الرحمن محمد بلح الغامدي، مقال إمكانية الآثار في التعرف على عقائد الأمم السابقة للعبرة وترسيخ عقيدة المسلم، مجلة الفيصل، العدد ١٥٦ ، السنة

١٣ ، جمادى الآخرة سنة ١٤١٠هـ ـ يناير سنة ١٩٩٠ ، ص ٦٧ ـ ٧٠ .

(٧) دكتور أحمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٠ ، ص ١٣٠ . وانظر أيضًا كتاب محمد لطفي جمعه في تاريخ النبي ﷺ والمعنون «ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله» ، الفصل المعقود في وصف الجزيرة العربية وخاصة اليمن وما ازدهر فيه من مدنية وحضارة ، طبع مكتبة دار النهضة المصرية ، سنة ١٩٥٨ ، ص ١١٤ .

(٨) الأستاذ عبد الله حمد الحقيل ، مقال «الحلقة المفقودة من تاريخ بلادنا» ، مجلة المنهل ، عدد ٤٤١ ، السنة ٥٢ ، مجلد ٤٧ ، ربيع الأول والثاني سنة ١٤٠٦ هـ ـ نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٩٨٦ ، ص ٣٦٠ .

(٩) سورة هود ، آية ٤٩ .

(١٠) دكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد ، كتاب دراسات في علم الآثار ، ص ٨٧ .

(١١) أمثال موزيل وكارستن نيبور وجوزيف توماس أرنولد وجوزيف هاليفى وادوارد جلازر ويندل فيلبس من الإفرنج ونزيه مؤيد العظم ومحمد توفيق والدكتور أحمد فخري والدكتور حسن محمد الشماع والقاضي اليمني إسماعيل بن علي الأكوع وغيرهم من العلماء والرحالة العرب .

(١٢) يذهب البعض إلى أن مكرب معناه مقرّب أي مقرب من الآلهة فكان هو الوسيط بينها وبين الناس (جواد على ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص ٢٦٨)

(١٣) ، (١٤)

دكتور أحمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، مصر والعراق ، سوريا ، اليمن ، إيران ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ص ١٢٦ وما بعدها .

(١٥) د . أحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ١٦٢ ، عبد الله بن عبد الوهاب المجاهد الشماحي ، اليمن ، الإنسان والحضارة ، مجلة الفيصل ، العدد ١٩ ، ديسمبر سنة ١٩٧٨ .

(١٦) ، (١٧)

سورة النمل ، آية ٢٣ ، ٣٣ .

(١٨) سورة سبأ، آية ١٨ .

(١٩) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، عـدد ٤٢ ، المجلد ٦ ، طبع دار الشعب، ص ٤٩٦ .

(٢٠) محمد عزة دروزة، تاريـخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص ١٧٥ ، ونـوفل أفندي نوفل، سـوسنة سليمان في أصول العقائد والأديـان، بيروت، سنة ١٨٧٦ ، ص ١٢٣ـ ١٢٨ .

(٢١) سورة البقرة، آية ٢٥١ .

(٢٢) سفر صموئيل الثاني، إصحاح ١١ .

(٢٣) كتاب مصر الفراعنة، تأليف السير ألن جاردنـر، ترجمة الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٧ ، ص ٣٦٠ .

(٢٤) التوراة، سفر الملوك الأول، ٣ : ١ .

(٢٥) سفر الملوك الأول، ٩ : ١٦ .

(٢٦) سفر الملوك الأول، ١٤ : ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢٧) مصر الفراعنة، المرجع السابق، ص ٣٦١ .

(٢٨) دكتور أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢٩) سورة النمل، آية ٣٢، ٣٣ .

(٣٠) نعمان الجارم، أديـان العرب في الجاهليـة، ط١ ، مطبعـة السعادة بمصر، سنـة ١٣٤١ هـ/ ١٩٢٣م . ص ١٨٦ ـ ١٩٠ .

(٣١) للوقـوف على مزيد مـن المعلومات عن عبـادة المصريين القدماء للشمـس راجع كتاب «آلهة مصر» لفـرانسوا دومـاس ترجمة زكـي سوس، الهيئـة المصرية العـامة للكتاب من مجموعة الألف كتاب الثانية رقم ١٠ ، سنة ١٩٨٦ .

(٣٢) سورة النمل، آية ٢٤ .

(٣٣) دكتور أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٧٤ .

(٣٤) انظـر في ذلك كتـاب «الإسرائيليـات والموضوعـات في كتـب التفسير» للدكتـور الشيخ محمد بن محمـد أبو شهبة، من سلسلة البحوث الإسلاميـة، القاهرة سنة ١٤٠٤هــ سنة ١٩٨٤م، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٣ وكذلك تفسير ابن كثير والبغوي،

ج٦، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠.

(٣٥) دكتور أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٦٨، ومجلة فكر وفن باب قراءات، العددان ٤٨، ٤٩، السنة ٢٦، سنة ١٩٨٩، ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٣٦) انظر تعليق أمين فارس بكتاب الإكليل للهمداني، طبع برستون سنة ١٩٤٠، صفحة ٢٤ هامش ١٢.

(٣٧) تفسير ابن كثير، المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٣٨) سورة سبأ، الآيات ١٥ ـ ١٧.

(٣٩) القاضي اليمني إسماعيل بن علي الأكوع، مقال «سدود اليمن»، مجلة المنهل، عدد خاص عن الأثر والآثار، رقم ٤٥٤، السنة ٥٣، مجلة ٤٨، ص ١٩٧.

(٤٠) دكتور أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٤١) دكتور حسن محمد الشماع، مقال سد مأرب من عجائب العالم القديم، مجلة الفيصل، العدد ٣٧، السنة ٤، رجب سنة ١٤٠٠هـ ـ يونيو سنة ١٩٨٠م، ص ٩١.

(٤٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ١٨٠ ـ ١٨١، ط٣، القاهرة.

(٤٣) الهمداني، الإكليل، طبع برنستون سنة ١٩٤٠، ج ٨، ص ٤٣.

(٤٤) دكتور أحمد فخري، بين آثار العالم العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٥٨، ص ٢٢ له أيضا دراسات في تاريخ الشرق القديم، المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٤٥)، (٤٦)

دكتور حسن محمد الشماع، سد مأرب من عجائب العالم القديم، المرجع السابق، ص ٩٥، ٩٦.

(٤٧) دكتور الشماع، المرجع السابق، ص ٩٦. وقد حدد المسعودي تاريخ سيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في عهد الملك عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف (مروج الذهب، ج ٢، ص ١٨٠) في حين أن أحمد حسين شرف الدين في كتابه «اليمن عبر التاريخ» يذهب إلى أن سيل العرم كان في عام ١١٥ قبل الميلاد (ط٢، سنة ١٩٦٤، ص ١٢٧).

(٤٨) انظر في ذلك قصة الخلد أو الفأرة ذات الأنياب والمخالب الحديدية التي أوردها

الدميري في كتابه «حياة الحيوان الكبرى»، طبع القاهرة، ج ١، ص ٤٤٥ .

(٤٩) سورة سبأ، الآيات ١٥ ـ ١٩ .

(٥٠) لسان العرب لابن منظور، ج ١٢، ص ٣١٩.

المراجع :

- القرآن الكريم.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، طبع دار الشعب، القاهرة.
- التوراة (العهد القديم).
- الأستاذ عبد الله حمد الحقيل، مقال الحلقة المفقودة من تاريخ بلادنا، مجلة المنهل، عدد ٤٤١، السنة ٥٢، مجلد ٤٧، ربيع الأول سنة ١٤٠٦هـ ـ ديسمبر سنة ١٩٨٦م.
- دكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد، دراسات في علم الآثار.
- دكتور أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢.
- دكتور أحمد فخري، بين آثار العالم العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٥٨.
- محمد لطفي جمعه، ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٥٨.
- دكتور عماد عبد الحميد النجار، التطور التاريخي لبني إسرائيل، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ط١، سنة ١٩٧٢.
- محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم.
- الحسن أحمد الهمداني، الإكليل في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات، طبع برنستون سنة ١٩٤٠.
- أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ط٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة سنة ١٩٦٤.

- الحسن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة ١٩٧٤ .
- الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط١، ج ٢، مكتبة النهضة، بغداد، سنة ١٩٦٩ .
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ٣، القاهرة، سنة ١٩٥٨ .
- القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، مقال «سدود اليمن»، مجلة المنهل، عدد خاص عن الأثر والآثار، العدد ٤٥٤، السنة ٥٣، المجلد ٤٨، رمضان ــ شوال سنة ١٤٠٧هـ ـ مايو ـ يونيه سنة ١٩٨٧م.
- مصر الفراعنة، تأليف سير ألن جاردنر، ترجمة دكتور نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٧م.
- آلهة مصر، تأليف فرانسوا دوماس، ترجمة زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب، عدد ١٠، سنة ١٩٨٦م.
- نوفل أفندي نوفل، سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان، بيروت، سنة ١٩٧٦م.
- دكتور محمد بن محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، القاهرة، سنة ١٩٨٤م.
- دكتور أحمد سوسة، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، وزارة الثقافة والإعلام، طبع دار الحرية، بغداد، سنة ١٩٧٩م.
- منصور إبراهيم الحازمي، مقال رحلات العرب في جزيرة العرب، البلاد السعودية، سنة ١٩٠١ ـ سنة ١٩٧٢، مجلة الدارة، ع ٣، س ٥، ربيع الآخر سنة ١٤٠٠ هـ ـ مارس سنة ١٩٨٠م.
- دكتور حسن محمد الشماع، مقال سد مأرب من عجائب العالم القديم، مجلة الفيصل، عدد ٣٧، السنة ٤، رجب سنة ١٤٠٠هـ ـ يونيو سنة ١٩٨٠م.